بانتظار نفخة البعث

قصة الموت والرعب في سجن تدمر

علي أبو مريحيل

2018

بانتظار نفخة البعث

بانتظار نفخة البعث

قصة الموت والرعب في سجن تدمر

علي أبو مريحيل

2018

إهداء

إلى روح الدكتور الراحل عزت شحرور – مدير مكتب الجزيرة في الصين ..

عام مضى، كأنك ما رحلت، لايزال صدى صوتك ناقوسا، ورائحة عطرك تستبد في المكان.

لا جديد سوى أننا ما عدنا نتدحرج كأحجار شطرنج أمام مدّ ثقافتك على مفترق حوار أنت سيّده.

لكننا بتنا خفافا بلا وزن أو قافية في فضاء بعيد عن جاذبية حديثك وأناقة حضورك.

مازال سكان بكين يهرولون صباحاً إلى أعمالهم، كأن الشمس لم تغب، ولم يزل سور الصين العظيم يتلوى كأفعى، لم ينتصب حداداً على رحيلك!

ومازال حارس الحي الدبلوماسي مغروساً كغصن في مكانه، لم يتدلَ للثم ظلالك!

أما تانج ـ نادلة المكتب ـ فقد خفّ حمل يدها كأسا من الشاي الأخضر، دون أن تدري أننا تجرعناه علقما.

هكذا تستبد الحياة، تشرع أبوابها أمامك كأنك سيدها، وفي لحظة تُطوى عليك الأرض بما حملت كأنك لم تكن!

مقدمة

بين آلاف اللاجئين إلى السويد في سياق موجة اللجوء المتواصلة منذ ستة أعوام هنالك لاجئ من نوع مختلف، السوري ريبال، أدخل سجن تدمر الذائع الصيت وهو في الـ19 من العمر وخرج منه بعد 12 عاما.

لم يكن ريبال ناشطا سياسيا أو سجين رأي، بل مجرد مجند خدمة إلزامية ارتكب خطأ أثناء قيادته مدرعة، فلفقت له تهمة خطيرة أدت إلى سجنه في أسوأ سجون سوريا، ثم منع من السفر بعد إطلاقه بناء على عفو رئاسي.

في قصة ريبال -الذي نجح في الإفلات بداية الثورة السورية، والسفر إلى لبنان لفترة وجيزة، قبل الهجرة إلى السويد عام 2015 - كشف لفصل جديد من عبثية الأحكام العسكرية خلال العمل بقانون الطوارئ السوري وقسوتها.

وهي كذلك شهادة جديدة على الأهوال التي عايشها نزلاء سجن تدمر، وهو أشهر سجون سوريا وأكثرها قسوة لغاية صيف عام 2015 عندما استولى تنظيم الدولة الإسلامية على المنطقة التي يقع فيها وسوّاه بالأرض.

رغم الإفراج عنه بعفو رئاسي أصدره بشار الأسد عام 2000 بعد توليه منصبه خلفا لأبيه فإن ريبال، لم يذق طعم الحرية إلا مؤخرا، فقد منع من السفر إلى الخارج، كما كان يتم استدعاؤه بين فترة وأخرى لتسجيل حضوره في أحد أفرع المخابرات القريب من محل إقامته لأسباب لا يعرفها.

بعد قيام الثورة السورية عام 2011 استطاع ريبال، أن يذهب إلى لبنان ليستقر هناك في منطقة بئر حسن ببيروت، حيث عمل فيها في مجالات شتى لإعالة زوجته وأولاده.

وبعد أن شرعت السلطات اللبنانية قوانين جديدة تنظم وجود السوريين وتشترط على اللاجئين منهم وجود كفيل لبناني لهم اضطر للسفر إلى تركيا، ولم يمكث طويلا هناك، فقد استقل كغيره من اللاجئين السوريين أحد قوارب الموت المتجهة إلى اليونان بمساعدة مهرب تركي، ومن اليونان توجه عبر عدد من العواصم الأوروبية إلى السويد، حيث يقيم الآن مع عائلته.

المؤلف

الدرس الأول

لم أوقّع ..

وقع الخبر كصاعقة في أرجاء البيت، بينما وقف ريبال مشدوها، لا يدري ما الذنب الذي اقترفه وكاد أن يوقف قلب أمه، قبل أن تهرع مسرعة لتخبر زوجها في دكانته المجاورة، بما بدر من طفله المدلل ..

ـ هذه نهاية دلالك لهذا الممسوخ، مصيبة حلت على رؤوسنا.

لم يدرك ريبال آنذاك، وهو طالب في المرحلة الإبتدائية، معنى ألا يوقّع على استمارة انضمام لطلائع حزب البعث السوري، لمجرد شعوره بالخجل من إلقاء التحية العسكرية لرئيسة مكتب التنظيم والإعداد المكلفة بتنظيم طلاب المدارس الإبتدائية في محافظة درعا جنوب البلاد، وما يمكن أن يجرّ ذلك من وبال عليه وعلى عائلته.

قام والده باصطحابه مبكراً في صباح اليوم التالي إلى مدير المدرسة، لتثبيت عضويته في الحزب، والتأكيد على أن تصرفه كان طفولياً، لا يمثل ولاء العائلة للحزب وللقائد الخالد والمفدى حافظ الأسد.

لم ينس ريبال تلك الليلة التي قضى فيها ساعة كاملة وهو واقف على قدم واحدة، لم تشفع له سنواته التسع في النجاة من عقوبة أبيه الغاضب.حيث كان يتابع تغيّر ملامحه، وتحوله إلى شخص آخر لا يشبه ذاك الذي يغدق عليه بالطيبات مساء كل يوم.

كانت تلك الحادثة في سبعينيات القرن الماضي،الدرس الأول لريبال في التربية الوطنية القائمة على التدجين باستخدام معاول الخوف والرعب من النظام الحاكم، والتي استمرت لعدة عقود، قبل أن تندلع الثورة السورية عام 2011، لتكسر حاجز الخوف وتتيح لجيل كامل أن يتداول لأول مرة مفردات لم يسمع بها من قبل، مثل: الحرية والكرامة والديمقراطية.

دأب ريبال فيما بعد على المشاركة في كافة فعاليات وأنشطة منظمة طلائع البعث في المحافظة، وكان لفرط خوفه، من أكثر الطلاب انضباطاً والتزاماً، وهو ما لفت نظر مدير المدرسة (مشرف الوحدة الطليعية)، فعيّنه مشرفا عاماً على الفرقة الطليعية في فصله، ولم يكن آنذاك يتجاوز العاشرة.

معسكر الطلائع

في صيف عام 1977، التحق ريبال لأول مرة في معسكر مغلق للطلائع بالمحافظة، وكان ضمن حوالي ثلاثمئة طالب وطالبة تم اختيارهم للمشاركة في برنامج تدريب صيفي أعدته منظمة الطليعة، حمل شعار "يدا بيد لإنشاء جيل قومي عربي اشتراكي".

كانت المرة الأولى التي يغيب فيها عن البيت، مرّ أسبوع، أسبوعان، وبدأت أمه تتضور شوقاً إليه، فطلبت من زوجها أن يأخذها لزيارته في المعسكر ..

أبو حسن: أنظري إلى بطنك، كيف تذهبين إلى هناك وأنت في شهرك السابع؟
ـ لم أعد أطيق غيابه، اشتقت إليه كثيراً، لا تنس أنه أول العنقود!
ـ يضحك ويشير إلى بطنها: لكنه ليس آخره.
ـ أرجوك خذني غداً
ـ غداً الجمعة، لا أريد أن أفوّت الصلاة.
ـ إذن بعد غد السبت.
ـ وهل تظنين أنه معسكر أبي، سوف أسأل جارنا أبا الوليد عن مواعيد الزيارة، فابنه أيضاً هناك.
ـ جيد، وهكذا نأخذ أم الوليد معنا لترى ولدها وتطمئن عليه.

تزامن وصول العائلتين إلى المعسكر مع تنظيم عرض كشفي حضره عدد من قيادات حزب البعث في المحافظة، فكان عليهما الانتظار حتى نهاية العرض.
كانت الشمس حارقة، ولم يكن خارج المعسكر أي مظلة تقي رؤوسهم من حر الصيف.

في تلك الأثناء أنّب أبو حسن زوجته بسبب إصرارها على المجيء رغم حملها، وطول المسافة بين المعسكر والقرية، فضلا عن الجو الحار والطريق الوعرة.

كانت أم حسن تتصبب عرقاً وهي تشيح بحواسها عن زوجها نحو بوابة المعسكر بانتظار إشارة من الحارس.

مرت ساعة كاملة قبل أن يسمح لأولياء أمور الطلبة الذين تجمهروا أمام البوابة بالدخول لرؤية أبنائهم.

ما أن أطل ريبال ببذلة الطلائع، حتى هرع والداه لاحتضانه، لكنه فاجأهما بأن توقف على بعد مترين ليلقي عليهما التحية الكشفية، قبل أن يستعرض مهاراته بإلقاء نشيد الطلائع بصوت وإيماءات تجاوزت عقده الأول ..

للبعث يا طلائع، للنصر يا طلائع
أقدامنا حقول، طريقنا مصانع
وتلمع الرايات في مواكب الطلائع

يا راية الحرية، يا شعلة القضية
تموّج على ذرا السهول والجبال

للحب والعروبة، يا أمنا الحبيبة
يا أرضنا، يا دارنا، يا منبت الأبطال

كوني نشيد المجد كوني في فم الأشبال
نمضي إلى الأمام ونصنع الرايات
أقدامنا حقول، طريقنا مصانع.

لم تسمع أم حسن تلك الكلمات، بل استوقفها وجه ريبال الشاحب، وجسمه النحيل، ما أثار قلقها عليه، فراحت تسأل عن طبيعة أكله وعدد الوجبات التي تقدم إليه في اليوم الواحد، قبل أن تطلب من أم الوليد أن توصي ابنها عليه كونه أكبر سناً..

هوّني عليك يا أم حسن، لا تقلقي، فأحد المسؤولين في إدارة المعسكر أخبر أبا الوليد للتو بأنهم سيتكفلون برعايتهم، وتنمية مواهبهم وقدراتهم، وتربيتهم تربية طليعية.

في الطريق إلى البيت، همست أم حسن في أذن زوجها..

ـ أشعر بالذنب، ما كان ينبغي أن نجعله يرتبط إلى هذا الحد بالطلائع.
ـ اخفضي صوتك يا امرأة، ألست من أصرّ على ذلك؟
ـ نعم، ولكن لم أتوقع أن يصل الأمر إلى هذا الحد.
- عن أي حد تتحدثين؟ إنه الآن شبل طلائعي، من يدري ربما يتبوأ في المستقبل القريب مركزاً مهما، ليريحنا فيما بعد من عناء الحياة.

تفويض الدم

على غير عادته، استفاق ريبال نشيطاً في صبيحة اليوم الثامن من شباط/فبراير 8791، إنه اليوم الذي سيمارس فيه لأول مرة حقه الانتخابي، فقد أبلغ مدير المدرسة جميع الطلاب قبل أسبوع من ذلك التاريخ، بضرورة الحضور مبكراً للمشاركة في الاستفتاء الشعبي على إعادة انتخاب رئيس البلاد حافظ الأسد لولاية ثانية تستمر سبع سنوات.

في باحة المدرسة الواسعة، انتظم مئات الطلاب في طوابير متوازية أمام لجان اقتراع تابعة لحزب البعث كلفت بجمع أصوات الناخبين في مدارس المحافظة.

لم تجر عمليه التصويت كما تصوّر ريبال بأن تتم وسط أجواء احتفالية وعلى وقع قرع الطبول وعزف الموسيقى وترديد نشيد البعث الذي كان يحفظه عن ظهر قلب، بل كانت أشبه بعملية تعذيب جماعي لطلاب لم يتجاوزوا العاشرة، وهو يجبرون على تسجيل موافقتهم بالدم.

حيث كان شاب في كل لجنة مكلفاً بوخز أصابع الناخبين بمخرز صغير للإدلاء بأصواتهم ببصمة ملطخة بالدم، وذلك لإعطاء انطباع عام بأن مكانة الرئيس حافظ الأسد بالنسبة للشعب السوري أعلى من أن يجري استفتاء عليها، وإن كان لابد من ذلك، فليكن بالدم، امتثالا للجملة الاستهلاكية التي لطالما رددها السوريون لدرء أعين المخابرات وأجهزة الأمن: "بالروح بالدم نفديك يا حافظ".

سلوك لم يجد له ريبال تفسيراً، وهو يتابع خطاباً متلفزاً للرئيس المنتشي على القناة الأولى، بمناسبة تجديد الثقة، جاء فيه: "إنني شاكر لكم ترشيحي وإجماعكم على هذا الترشيح لفترة الرئاسة الثانية، ومدين لأبناء وطني بالثقة الغالية التي أولوني إياها، وبالعواطف الصادقة التي غمروني بها".

يسأل ريبال والده بمنتهى البراءة وهو يتحسس موضع الألم في أصبعه: هل كل الذين انتخبوا الرئيس تم وخز أصابعهم مثلي، أم أن ذلك حدث فقط في مدرستنا؟

ـ طبعاً، فقد فاز رئيسنا بنسبة 99.9%، ما يعني أن ثمانية ملايين وتسعمئة وعشرة آلاف شخص فعلوا ذلك، لكننا قمنا بذلك بملء إرادتنا، أما أنتم فلأنكم صغار وحرصاً على سلامتكم، كان هناك من ساعدكم في الإدلاء بأصواتكم، وما كاد ينهي كلامه، حتى أضاف بصوت خافت، لا تعاود هذا السؤال أمام أحد غيري، كي لا أزعل منك كما في المرة السابقة، في إشارة إلى علقة الانتساب لمنظمة البعث.

سلمى

ذات مساء، عاد ريبال إلى البيت منهكاً، بعد أن قضى ساعات نهاره في الثانوية العامة، فكان أن رأى لأول مرة "سلمى" ابنة الجيران التي حلت زائرة برفقة أمها في سهرة عائلية.

كانت سلمى رغم وداعة وجهها، جريئة ومنطلقة اللسان، فبادرت بالتحية: "أهلا ريبال .. عاش من شافك".

أصابه صوتها بمس كهربائي، فارتعد جسمه وشلّ لسانه، قبل أن يتمتم بكلمات غير مفهومة وينسحب مرتبكاً إلى غرفته، وسط ضحكات أم حسن وأم الوليد.

تكررت زيارات سلمى مع أمها، وفي كل مرة كان ريبال يسترق السمع خلف باب غرفته، خصوصاً حين يتركز الحديث حول محاسن سلمى وتفوقها في مدرستها، حيث لا تألو أم الوليد جهداً في تعداد فضائل ابنتها في كل زيارة ..

كيف تغسل الملابس، وتعد الطعام، وتعجن خمسين رغيفاً من الخبز، وترعى جدتها المقعدة، وهي طريقة متعارف عليها بين الأمهات في التسويق لتزويج بناتهن.

عرف ريبال من حديث أم الوليد ما يكفي عن سلمى ليقع في حبها، لكن خجله الدائم، حال دون أن يتجرأ ولو مرة واحدة في التحدث إليها، أو اقتحام احدى السهرات بحجة السؤال عن أي شيء آخر ليراها.

كانت لدى أم حسن الرغبة في تزويج سلمى لابنها البكر، فهي الأجمل بين فتيات الحي، والأكثر ذكاء ونضجاً، لكنها لم تكن راضية عن ارتباك ريبال كلما فتحت أمامه سيرة سلمى.

لم تسهم الطلائع في فك عقدة خجل لازمت ريبال منذ صغره، وانما جعلته أكثر انضباطا والتزاماً على مدار السنوات التي قضاها في معسكرات المنظمة.

كشفت أم حسن لزوجها عن مخاوفها من تأثير شخصية ابنها الخجولة على حياته، وصارحته برغبتها في تزويجه أملا في فك هذه العقدة.

تفهم أبو حسن مخاوفها، لكنه حاول أن يهدئ من روعها بالإشارة إلى أن الخجل فطرة إنسانية، وقاسم مشترك بين العديد من الشبان. وقال إن هناك فرصة أمامه ليصقل شخصيته حين يتم استدعاؤه للجيش.

ما أن سمعت الكلمة الأخيرة حتى شهقت شهقة أفقدتها صوتها ..

ـ عن أي جيش تتحدث؟ لايزال ريبال في السابعة عشرة من عمره، حين ينهي البكالوريا سيسجل بالجامعة، وعندها نخطب له سلمى ويتزوجان بعد التخرج.
ـ التجنيد خدمة إلزامية يا امرأة، أن يلتحق بالجيش وهو أعزب، أفضل من أن يفعل ذلك وهو متزوج ولديه أطفال.
ـ لكنه لايزال صغيراً.
ـ الآن أصبح صغيراً؟ قبل قليل كنت ترين أنه في سن الزواج.
ـ لا أدري، فقط لا أرغب في سماع هذه السيرة.
ـ حين ينهي الباكالوريا سيكون قد بلغ الثامنة عشرة، يدخل التجنيد، وبعد ذلك نخطب له أثناء دراسته في الجامعة.
ـ إن كنت ترى ذلك أفضل فلابأس، شرط أن نخطب له قبل أن يلتحق بالجيش.

الحي الذي كان يقيم فيه ريبال بمحافظة درعا

خطوبة وكابوس

لم تنشأ أم حسن أن يكون يوم تخرج ريبال وحصوله على شهادة البكالوريا يوما اعتيادياً، فقد شهد ذلك اليوم قراءة الفاتحة (الخطوبة) على سلمى، وإقامة حفلة صاخبة في القرية استمرت حتى ساعات الصباح الأولى.

لم ينس ريبال تلك الليلة، كان عريسا فوق العادة، فهو الشاب الوسيم الخجول المهذب الذي لم يسجل في صفحة عزوبيته أنه أساء لأحد، لذلك كان مضرب مثل، ومحط إعجاب وتقدير الجميع في قريته.

ظل بيت أبو حسن عامراً بالمهنئين لمدة ثلاثة أيام متتالية، لم يكن يقطع سلاسل زغاريد النسوة سوى دموع أم حسن المتقطعة كلما تذكرت اقتراب موعد التحاق ريبال بمعسكر التجنيد في دمشق.

فلطالما قضّ الموعد مضجعها، وكان نذير شؤم لها رغم تطمينات زوجها الدائمة، حتى ريبال الذي كان متحفزا، بدأ يفقد حماسه مع دخوله إلى عالم جديد عارم بالحب والعاطفة والمشاعر الجياشة.

في الليلة الأخيرة لريبال قبل أن يتوجه في صباح اليوم التالي إلى معسكر التجنيد، استفاقت أمه على كابوس جعل صراخها يوقظ كل أفراد العائلة، فقد رأت في المنام أنه عالق في بئر سحيق، وكان كلما امسك بدلو البئر ليتسلق إلى أعلى، يلتف الحبل حول عنقه، وظل يكرر المحاولة إلى أن مر شاب غريب بمحاذاة البئر وقام بقطع الحبل، فسقط في القاع دون أي أمل بالنجاة.

قضت أم حسن تلك الليلة وهي تتوسل زوجها باكية، أن يقدم طلباً لتأجيل موعد التجنيد بحجة التحاق ريبال بالجامعة، كان لديها إحساس كبير بأن مكروها ما سيصيب ابنها في حال التحاقه بالجيش، فحاول أبو حسن أن يهدئ من روعها، بالإشارة إلى إن البلاد ليست في حالة حرب، وليس هناك جبهات أو خطوط نار تستدعي الخوف، وكل ما في الأمر أن ريبال سيقضي عامين في الجيش ثم يعود شاباً صلباً ذا تربية عسكرية، يلتحق بعد ذلك بالجامعة لدراسة المحاماة، ويتزوج سلمى فور التخرج.

فترة التجنيد

بدأ ريبال مجنداً في الفرقة الأولى التابعة للواء المدرع 15 في ريف دمشق، حيث تلقى هناك دورة تدريبية استمرت ستة أشهر قبل أن يتم فرزه إلى الحدود اللبنانية ليقضي فترة تجنيده في كتيبة شيلكا في منطقة السلطان يعقوب المحاذية لبلدة مرجعيون المطلة على جبل الشيخ، وقد أوكلت إليه مهمة نقل المحروقات والمعدات والمواد التموينية بين السرايا المنتشرة على طول الشريط الحدودي.

في تلك الفترة كان ريبال منقطعاً تماماً عن أهله وخطيبته، حيث لم يكن بمقدوره التواصل معهم في ظل انعدام وسائل الاتصال آنذاك، فضلاً عن بعد المسافة، ونظام الإجازات المعقد بالنسبة للمجندين الذين يخدمون على الحدود، فظل يواسي نفسه ويؤنس وحدته بصورة لسلمى يقلب فيها ذكرياته، ويبوح لها بأشواقه وشجونه.

اكتشف ريبال في منطقة السلطان يعقوب، أن التجنيد العسكري ليس تلك المدرسة التي تخرج أجيالاً من الضباط والقادة، كما قرأ في الكتب، وسمع من والده، بل حظيرة يتم فيها كسر أنوف المجندين، وتسخيرهم للعمل كدواب دون أي اعتبار لآدميتهم.

في أحد المساءات الحزينة حيث بلغ الحنق مبلغه، أمسك ريبال قلمه لأول مرة وكتب على قصاصة ورق صغيرة ..

"في هذا المكان تمتهن كرامة الإنسان، لم نأت عبيداً، وانما دفعنا حب الوطن لخدمة العلم وتلبية النداء، فإذا بنا نساق كالدواب إلى منطقة معزولة، في حظيرة يتم فيها تدجيننا بتمريغ أنوفنا بالتراب، وإجبارنا على لوك الوحل وأوراق الشجر.. أي جدوى ترتجى من هذه الممارسات؟ ومتى كان الإذلال وسيلة لبناء وصقل الشخصية؟ وهل .."

لم يكمل ريبال جملته الأخيرة، وقام بتمزيق الورقة خوفاً من أن تقع في يد أحد، فيكون ذلك سبباً في سجنه أو إنهاء حياته.

لكن خوفه لم يمنعه من بث شجونه لسلمى، حيث كان يطيل التأمل في السماء، يحصي عدد النجوم التي تتوارى خلف غيوم عابرة، ويناجي القمر المستقر أعلى جبل الشيخ.

ثمن رصاصة

استفاق ريبال في ليلة شتوية قارسة، على صوت إطلاق نار قريب من خيمة حراسته، كان من أطلق النار زميله رضوان، وذلك عندما سمع أصواتاً مرعبة ظن أنها أصوات ضباع تقترب لافتراسه.

لم تمر الواقعة بسلام، حيث عنّف ضابط السرية، رضوان، معتبراً ما قام به تصرفاً أرعناً، وأمر باحتجازه حتى ساعات الصباح. وفي اليوم التالي صدرت عقوبة بحقه بالسجن 16 يوماً، وهي عقوبة شهيرة تعرف في قاموس التجنيد السوري بـ "الستعشرية".

لم يتوقع ريبال أن يكون ثمن رصاصة واحدة أطلقت بدافع الخوف، هو السجن، ودفع غرامة مالية قدرت آنذاك بعشرة دولارات (40 ليرة سورية)، وهي قيمة تعادل حوالي 30% من مرتب المجند في ثمانينات القرن الماضي.

تركت تلك الواقعة أثراً بالغاً في نفس ريبال، خصوصاً بعد أن قام الضابط المسؤول بجمع المجندين وإبقائهم لثلاث ساعات متواصلة في ساحة عامة، عراة إلا من ملابسهم الداخلية، حيث كانت درجات الحرارة شديدة البرودة خلال تلك الفترة.

لم تتوقف تبعات رصاصة رضوان عند هذا الحد، فقد تم تأجيل موعد إجازات أفراد السرية إلى ثلاثة أشهر، وكان ريبال واحدا منهم، ما يعني أنه سيقضي نحو نصف عام دون أن يتمكن من زيارة أهله وخطيبته.

وهو الذي كان يعد الساعات والثواني مع اقتراب موعد زيارته الأولى، إذ لم يكن يتبقى سوى أيام قليلة، لولا تلك الليلة المشؤومة.

حيث كان يخطط أن يشتري بما ادخر من راتبه خاتماً لسلمى، وثوباً دمشقياً لوالدته، وقميصاً من الحرير لوالده، وبعض المشغولات والحلويات الشامية لأشقائه وشقيقاته.

جبل الشيخ

حادثة المدرعة

ذات صباح من عام 1988 وبينما كان ريبال، يتلقى أوامر ضابط السرية الأولى لتعديل مسار المدرعة أثناء رجوعه إلى الخلف، تعالت صيحات الضابط بشكل جنوني، فانقطعت أنفاسه داخل المدرعة ظنا منه أنه دعس أحد الجنود بالخطأ، وكانت المصيبة حين علم بعد نزوله أن الضحية صندوق يضم داخله صاروخين حراريين مضادين للطائرات من نوع سام7 المعروف أيضا باسم كوبرا.

حالة من الارتباك والخوف سادت المكان حاول خلالها ريبال، جاهدا أن يقنع الضابط الغاضب بأن المدرعة لا تحمل مرايا جانبية، وأنه لم يحد في رجوعه عن التعليمات التي تلقاها منه شخصيا.

استمر الوضع على هذه الحالة إلى أن جاءت الأوامر بإخلاء السرية من الجنود باستثناء ريبال، الذي طلب منه أن يدخل المدرعة وحده، وأن يقوم بسحبها من فوق الصواريخ التي كان من الممكن أن تنفجر عند أي حركة للمدرعة مخلفة دمارا كبيرا.

عن تلك اللحظات المرعبة يقول ريبال، "لا أدري كيف ومتى دخلت المدرعة، كل الذي أذكره أن قلبي بقي خارجا.. إنها لحظات تشبه السير على الصراط المستقيم .. كنت أسمع نفسي وهي تردد آيات من القرآن الكريم وأدعية لم أكن أحفظها من قبل، إنها المرة الأولى التي أقود فيها المدرعة وعيناي مغمضتان."

وسط تصفيق الجنود خرج ريبال، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، لا لأنه نجا من موت محقق، بل لأنه شعر بأن لا قيمة له عند القيادة التي كان يمكن أن تستعيض عن روحه وحياته برافعة لم تكن تبعد عن موقع سريته سوى ثلاثة كيلومترات.

في صباح اليوم التالي توجه إلى مركز القيادة الحدودي في "جديدة يابوس" حاملا تقرير ضابط السرية عن الحادثة، وهناك تفاجأ بعد اطلاع ضابط الشرطة العسكرية على التقرير، بأمر اعتقاله وترحيله الفوري إلى أحد المراكز العسكرية في منطقة القابون الواقعة بالشمال الشرقي من العاصمة دمشق.

بعد يومين من التحقيق الودي في القابون تم ترحيله إلى أحد الأفرع العسكرية في الشام، حيث اختلفت هناك الوجوه، واختفت اللهجة الودية إلى الأبد.

يقول ريبال: "لم أكن أعلم حتى تلك اللحظة ما هي تهمتي، وما هو المطلوب مني، كنت فقط أردد بجميع أقوالي أن الحادثة تمت بشكل عفوي، وأن رجوعي إلى الخلف بالمدرعة تم وفق تعليمات ضابط السرية، وهذا ما أعدته أمام محقق الفرع الذي لم ترق له روايتي فصاح غاضبا "خدوه خلوه يقر أخو الـ.."، وكان ذلك إيذانا ببدء حفلات التعذيب المتواصلة التي استمرت ثلاثة أيام.

علم ريبال، بعد ذلك أن المطلوب منه هو الاعتراف بأنه فعل ذلك بملء إرادته، وهذا ما رفضه رفضا قاطعا فتم ترحيله إلى فرع فلسطين، وما أدراك ما فرع فلسطين! هناك حيث تفصّل التهم وفق مزاج المحقق، ومن سوء حظه هذه المرة أن مقاس تهمته الجديدة يقود إلى حبل المشنقة.

فبين ليلة وضحاها وجد ريبال، نفسه متهما بالعمالة لإسرائيل، ومكلفا بتصوير المواقع العسكرية السورية على الشريط الحدودي، وأنه لقاء ذلك يتقاضى أموالا طائلة من دولة الاحتلال.

15 يوما بين الشبح عاريا تحت أمطار الكوابل الرباعية والحشر في الدولاب والصعق بالكهرباء كانت كافية لتثبيت التهم في محضر التحقيق، وإحالة القضية إلى المحكمة العسكرية.

يسأل القاضي: متى بدأت العمل مع إسرائيل؟

ـ منذ ثلاث سنوات سيدي.

ـ ما هي المهام التي كلفت بها؟

ـ تصوير المواقع العسكرية على الشريط الحدودي.

ـ هل تلقيت أموالا مقابل ذلك؟

ـ نعم، تلقيت أموالا كثيرة.

ـ إذاً، أنت تقر بكل ما نسب إليك؟

في تلك اللحظة كشف ريبال، عن آثار التعذيب على جسده، وصاح بأعلى صوته في قاعة المحكمة "نعم، سيدي.. هذه هي أقوالي واعترافاتي". كرر ذلك مرتين قبل أن ينهار باكيا.

حكم القاضي في ذلك اليوم على ريبال، بالسجن المؤبد، فبات ليلته الأخيرة في فرع فلسطين، وفي صباح اليوم التالي تم ترحيله ضمن مجموعة من المعتقلين إلى سجن تدمر الصحراوي.

سجن تدمر

لم يكن ريبال، في ذلك الحين -وهو ابن الـ19- يعلم شيئا عن سجن تدمر، حتى أنه لم يسبق له أن قرأ أو سمع شيئا عن المجزرة التي نفذت فيه بحق سجناء إسلاميين قبل ثمانية أعوام.

كل الذي كان يشغله في الطريق إلى السجن وهو معصوب العينين ومكبل اليدين والقدمين، أهله الذين كانوا حتى تلك اللحظة يظنون أنه يخدم العلم في الأراضي اللبنانية، وخطيبته التي تنتظر عودته.

"لم نلبث أن نزلنا من سيارة الترحيلات أمام بوابة السجن، حتى تلقفتنا مخالب عناصر الشرطة العسكرية كالخراف، لم ينجُ أحد منا -وقد كنا قرابة الثلاثين معتقلا- من كماشة اللكمات، والركلات، واللطمات الطائرة، فضلا عن الشتائم التي كانت تنهال علينا مع كل كرباج يرتفع إلى السماء ويهوي على أجسادنا، إلى أن حشرنا على جدار في ساحة السجن الرئيسية، حيث تم تقسيمنا إلى ست مجموعات، كل مجموعة تولاها عدد من العناصر ركلا ولطما وجلدا بالكوابل المعدنية.

لم يقطع هذا المشهد الذي تحولت فيه الساحة إلى مسلخ حقيقي سوى بقر بطن أحد السجناء الذي أدى إلى خروج جزء من أمعائه ثم وفاته بعد أسبوع واحد من تشريفات اليوم الأول حسب ما علمت لاحقا".

هكذا وصف ريبال، حفلة الاستقبال التي كانت بانتظاره في سجن تدمر، هناك حيث لا مكان للرحمة والشفقة، أو كما يعمم على السجناء في اليوم الأول بأن لا جدوى من الاستغاثة بالله لتخفيف العذاب عنهم، لأن الله غير موجود في هذا المكان، والمفارقة أنه لا يوجد سجين في تدمر لم يمر أسفل البوابة التي كتب عليها مجازا "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب".

أحد المهاجع في سجن تدمر

لوائح وضوابط

ما أن انتهت تشريفات اليوم الأول، حتى سيق من كتبت لهم النجاة من الموت، إلى غرفة الأمانات ركلاً ولطماً، وهناك سلم السجناء مقتنياتهم، وهي أشياء في الغالب لا تحمل أية قيمة، وعادة ما تظل ذكرى لذوي السجين بعد موته.

في تلك الغرفة سمع السجناء اسماءهم للمرة الأخيرة، قبل أن يتم استبدالها بأرقام، ليصبح السجين مجرد رقم في قائمة طويلة يقلصها الموت حيناً ويضاعفها أحياناً.

بعد ذلك تم فرزهم على مهاجع متلاصقة تشبه الإسطبل، تتوسطها ساحة كبيرة، عادة ما تنفذ فيها أحكام الإعدام التي كانت تتم مرتين في الأسبوع الواحد.

كان من جملة ما تعلمه ريبال في اليوم الأول، أنه يحظر على السجناء رفع رؤوسهم ومد أبصارهم، بحيث لا يرى السجين سوى موطئ قدميه، وذلك بهدف إذلالهم وإخضاعهم، وضمان عدم التعرّف على وجوه جلاديهم.

كما يجبرون داخل المهاجع التي يضم كل واحد منها حوالي مئة وخمسين سجيناً، على النوم كالدجاج منذ غروب الشمس التي لا يرونها أصلاً، حتى شروقها، وفي ساعات النهار لا يسمح لهم بالوقوف والمشي إلا للذهاب إلى دورة المياه وبأوقات وضوابط محددة، عدا ذلك يبقى الجميع جالساً بانتظار الموت.

أما حفلات التعذيب فكانت تتم بصورة يومية،وتستمر لساعتين أو ثلاث ساعات، وكانت في بعض الأحيان تحدث مرتين في اليوم الواحد، وبالتالي لايمكن أن يمر يوم دون أن تنهال سياط عناصر الشرطة العسكرية على لحم السجناء بسبب وبغير سبب.

ويوضح ريبال أن كل مهجع يخضع لرقابة شديدة، حيث يوجد حارس دائم يراقب السجناء من طاقة في السقف تسمى "شرّاقة". كما يتم تعيين رئيس للمهجع منزوع الصلاحيات، وهو سجين بطبيعة الحال تقتصر مهمته على الوشاية والتبليغ عن أي تجاوز، بالإضافة إلى تنظيم الدخول إلى دورة المياه، والتوسّط لدى الحراس لإخراج جثة سجين، أو استدعاء طبيب يطلق عليه السجناء لقب "الجزار" للاطلاع على حالة مستعصية.

والمفارقة أن رئيس المهجع نفسه، يخضع للتعذيب في حال لم يسجل أي تجاوزات أثناء فترة رئاسته، التي لا تتجاوز أسبوعا، وهو ما يشير إلى أن الهدف من هذا الإجراء، هو بث الفرقة بين السجناء، وضمان عدم توافقهم والتحامهم إلا تحت سياط جلاديهم.

يصف ريبال تلك الأجواء بورشة الموت التي يشهد فيها السجناء كيف أن الموت لايميت، وكيف يصبح حكم الإعدام حلماً وأمنية، واستفاقة العين على صباح جديد نذير شؤم بالمكوث يوماً آخر على قيد العذاب والألم.

الشراب الأصفر

في عامه الأول بالسجن يذكر ريبال، حادثة "الشراب الأصفر" حين كان مكلفا ذات صيف حار مع خمسة من المعتقلين بنقل جثث القتلى الذين سقطوا تحت التعذيب، من أحد المهاجع إلى ساحة السجن الخلفية، ليتم نقلها إلى جهة غير معلومة.

وكانت المكافأة أن استُدعي وحده دون الذين معه إلى مكتب المساعد، حيث طلب منه بعد كلمات الثناء -التي لم يعتد على سماعها- أن يشرب كأس الشراب البارد القريب من ناحيته، فتناول الكأس بلا تردد، وهو الذي قد جف ريقه وتصلبت شرايينه من هول ما رأى، وما أن أخذ رشفة منه حتى نفثها بحركة لا إرادية.

تعالت الضحكات الهستيرية في مكتب المساعد ..لم تكن تلك المكافأة سوى كأس من البول، وبعد جلسة تعذيب خاصة استمرت عشر دقائق اضطر ريبال، أن يشرب الكأس كاملة دفعة واحدة.

يصف ريبال تلك الحادثة بالتجربة الأكثر مرارة له في السجن..

”رغم الإهانات التي نتعرض لها على مدار الوقت، فإن هذا الموقف كان الأكثر قسوة بالنسبة لي .. شيء ما خربش وجه الإنسانية، شعرت في تلك اللحظات أن العالم تحول إلى غابة بحجم سجن، وأن الإنسان انسلخ عن جلده وطبيعته وتحول إلى وحش كاسر..

من الذي يعطي الحق لأي كان، أن يعاقب الآخرين بهذه الطريقة؟ وأي قانون هذا الذي يتيح لمثل هؤلاء الأوغاد، أن يجبروا سجينا على شرب بولهم ولعق قاذوراتهم؟“.

يضيف ريبال: ”عدت إلى المهجع ظهر ذلك اليوم شخصاً آخر .. كان كل شيء يحيط بي يثير فيّ الخوف والرعب، حتى الجدار الذي كنت أسند رأسي عليه، لم أعد أثق به، اعتزلت بقية السجناء لمدة أسبوع كامل.

خلال تلك الفترة لم تمتد يدي إلى الطعام، فتدهورت حالتي الصحية، وفقدت أكثر من نصف وزني، فأصبحت ظلاً من الجلد يتوكأ على هيكل عظمي.

لم يخرجني من تلك الحالة إلا وجه أمي الذي زراني مبتسماً في المنام، فاستبشرت خيراً، وقررت مقاومة الوهن وتحصين نفسي ضد المحاولات المتكررة لتصفيتنا بهذه الطريقة، فلعل لقاء قريبا يجمعني بها، كنت أخشى أن تراني في تلك الهيئة المفزعة“.

استمناء قسري

في احدى ليالي السجن الطويلة، كان مؤشر ساعة الموت يبعث على القلق، قبل أن يفتح الرقيب "عقاب" برفقة خمسة عناصر من الشرطة العسكرية باب المهجع، بعد أن كاد ذلك اليوم يمر دون حفلة تعذيب منتظرة.

في تلك الليلة، كان أبو الرياض، أكبر سجناء المهجع سناً، يتلوى ألماً بسبب تقرّح ساقه اليمنى وعبث الديدان فيها، وذلك نتيجة الإهمال الطبي وعدم تلقيه العلاج لعدة أشهر في أعقاب حفلة تعذيب سابقة ألتهمت فيها كرابيج الحديد أجزاء كبيرة من لحمه.

حاول أبو رياض أن يكتم صوته ويتعالى على وجعه أمام الرقيب، كي لا يدفع ضريبة ذلك أضعافاً من الألم والوجع، لكنه فشل في ذلك، عندما بثت أضلاعه صرخة دوت في أرجاء السجن.

تساءل الرقيب بجدية غير معتادة عن حال أبي رياض، فتجرأ حمزة، وهو شاب ثلاثيني، بالإجابة: "ساقه يأكلها الدود منذ أسبوع" صمت الرقيب لبرهة قبل أن يطلب من حمزة وأبي رياض المثول أمامه.

يسأل مستنكراً: لماذا لم يخبرني أحد بذلك؟ يحاول حمزة أن يجيب فتنهال على وجهه صفعة: لا تجيب قبل أن آذن لك.

ثم يستدرك بهدوء، لو أخبرني أحد لعالجته مبكراً، كما أن العلاج متاح ومتوفر لدينا في السجن.

يطلق ضحكة طويلة، وسط صمت وارتباك السجناء.

بعد فاصل من الشتائم، يسأل إن كانوا قد قرأوا في كتب العلم أن مني الإنسان (ماء ظهر الرجل) يحتوي على مادة لزجة تساعد على التئام الجروح وعلاج القيح.

يضحك الجميع، ويبقى السجناء في حالة من الخوف والترقب.

يأمر الرقيب بنزع ثياب أبي رياض.

يرتبك حمزة ويتلعثم، فتنهال عليه السياط من كل صوب قبل أن يفعل.

ـ ليس بعد، أريده كما نزل من ... أمه

ينفذ الأمر هذه المرة دون تردد.

بدا أبو رياض هزيلا وقد قارب الستنين من عمره، لم يختلف كثيراً وهو عار، حيث شكلت النتوء وآثار الكرابيج على جسمه الأبيض، طبقة من التقيحات بنية اللون داكنه، كانت أشبه بالثوب، لولا بروز عورته.

ـ الآن استخرج لنا العلاج يا .. !

لم يفهم حمزة، وبحركة لا إرادية يضع يديه على رأسه خشية من ضربات جديدة.

تنهال الكرابيج عليه، ويأتي أمر الرقيب ..

ـ أفعل به ما تفعله في خلوتك حين تشاهد فيلماً لـ (...)، يسمّي ممثلة مصرية اشتهرت بأفلامها الجريئة.

يجفل حمزة كأن على رأسه الطير، لا يأتي بأية حركة، تنهال عليه السياط مجدداً، ويبقى على حاله لثوان معدودة، قبل أن يبدأ بتنفيذ الأمر مكرها.
كان عنصران من الشرطة يمسكان بأطراف أبي رياض الذي لم تكن لديه القوة للوقوف على ساقه المعطوبة، بدا المشهد شاذا ومقززا، لم يشفع له وهن جسده ونحيبه كأم ثكلى وعدم انتصاب عضوه الذكري، في إلغاء المهمة أو استبدالها بتطرّف آخر لايستبيح عورته.

طالت الدقائق دون أن تحقق مراد الرقيب المهووس بالتعذيب والتنكيل، فألاح بفكرة أكثر قذارة وإباحة، وطلب من حمزة أن يكف عن استخدام يديه، ويفعل ذلك بلسانه وشفتيه، وهو ما يعرف بـ "الجنس الفموي".

كان يتم ذلك وسط ضحكات أفراد الشرطة العسكرية، وفي لحظة تجلي طلب الرقيب من السجناء التصفيق والتهليل لتحفيز حمزة، فصفق الجميع وكأنهم في حفلة، إلى أن سالت قطرات من السائل المنوي على الأرض.

لم يتوقف المشهد عن هذا الحد، بل امتدت قساوته بإجبار حمزة على تلطيخ كفه بالسائل المنوي، ومسح تقيحات أبي رياض للتعجيل في شفائه، امتثالا لزعم وخيال الرقيب اللعين.

يقول ريبال، بعد شهر من تلك الحادثة، بترت ساق أبي رياض، دون أن تقدم له المضادات الحيوية اللازمة التي تعطى للمرضى في مثل هذه الحالة، فزداد وضعه سوءاً، وحين ضاق حراس السجن ذرعاً بصراخه وأنينه، تم سحبه بطريقة غير آدمية إلى جهة غير معلومة خارج المهجع، ومنذ ذلك الحين اختفت أخباره، ولم نعرف عنه شيئاً.

أما حمزة، فظل لثلاثة أشهر بعد الحادثة لا ينبس ببنت شفة، وكان دائماً يخفي رأسه بين ذراعيه. وفي احدى الصباحات، استفاق السجناء على خبر وفاته في مكانه قهرا.

آثار دماء على جدار مهجع في سجن تدمر

أين الله؟

يذكر ريبال في عامه ومهجعه الخامس، نقاشاً حاداً دار بين سجين ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين وآخر انتفض غاضباً بسبب دعوات الأول المتكررة إلى الصلاة همسا ورمشاً.

كانت مثل هذه النقاشات تجري في الأوقات النادرة التي تسنح فيها الفرصة للسجناء بتجاذب أطراف الألم، بعيداً عن أعين ومسامع الحراس.

شرح عمّار لمن حوله كيفية الصلاة بتحريك رموش العين، وبعد جرّ مجموعة من الأحاديث والآيات القرآنية، اختتم كلامه بالإشارة إلى أن حالة السجن لا تسقط فرض الصلاة على المسلم.

في تلك الأثناء ثار أبو حسام، وهو رجل في نهاية عقده الرابع، وتساءل: نصلي لمن، ولماذا؟

- عمار: تصلي لله ربي وربك

- وأين الله عنا الآن، لماذا لا يتدخل ليفك كربتنا؟ وكيف يدع هؤلاء الذين يشتمونه كل يوم ويبولون على كتابه، يتحكمون بمصائرنا، ويعبثون في أرواحنا؟

ـ يمهل الله ولا يهمل، قد يكون ذلك لحكمة، إنها سنة الله في عباده.

ـ وأين الحكمة في مكوثنا وموتنا بالسجن، ولماذا نحن، بينما ينعم من يفترض أنهم كفار، بالحياة خارج هذه الأسوار!

ـ لهم الدنيا، ولنا الآخرة بإذن الله، لا تقنط من رحمة ربك يا رجل.

ـ ومن قال لك أني أريد الآخرة، هي حلال لك ولأمثالك.

وقبل أن يحتدم النقاش، تدخل بقية السجناء، وطالبوا أبا حسام أن يستغفر ربه، وما هي إلا لحظات حتى خرت قواه وأجهش باكياً كطفل صغير.

بخلاف السجون الأخرى، لم يكن السجناء في تدمر ينعمون بزيارات عائلية، فكانوا معزولين تماماً في سجنهم الصحراوي، لايعرفون شيئاً عما يدور خارج أسوار السجن سوى ما ينقله لهم الوافدون الجدد.

أو ما يتعالى إلى مسامعهم، من أحاديث بين عناصر الشرطة العسكرية، حول أحوال البلاد، أو أثناء تبادل التهاني والتبريكات، كأن يعايد عنصر زميلاً له خلف باب المهجع بعيد رأس السنة، فيعلمون أن عاماً مضى، وآخر حل، فمنهم من يبتهج بانتظار انفراجة قريبة، ومنهم من ييتأس، ويبقى السجن قاسماً مشتركاً بين الفريقين.

يذكر ريبال أن أبرز ما نُقل لهم وأثار ضجة كبيرة بين السجناء، هو فوز المنتخب الألماني لكرة القدم على حساب نظيره الأرجنتيني ببطولة كأس العالم عام 1990، حيث كان بعض السجناء من محبي ومتابعي الرياضة، وكانوا خلال تلك الفترة يراهنون على هوية المنتخب الفائز، فهناك من رشّح البرازيل، وآخرون رشحوا إيطاليا، إلى أن جاء الخبر اليقين عبر وافد جديد إلى المهجع، فأشغل ذلك نقاشاً حاداً.

كما يذكر المرة الأولى التي تلقى فيها أهله نبأ اعتقاله، وكان ذلك بفضل أحد سجناء تدمر الذين شملهم العفو الرئاسي عام 1991.
في ذلك الوقت كان قد مرّ على اعتقال ريبال ثلاث سنوات، لم يعدم فيها أهله وسيلة للبحث والسؤال عنه لكن دون جدوى، إلى أن جاءهم خبر اعتقاله في تدمر.

يقول ريبال، "علمت لاحقا أن أمي منذ ذلك الوقت داومت على المبيت مساء كل عيد أمام بوابة المسجد الأموي، لعلها تحظى برفع صوتها إلى مسمع الرئيس السوري آنذاك حافظ الأسد، وكانت في كل مرة تقترب من موكبه تجد نفسها ملقاة تحت غابة من أقدام المخابرات."

عطسة

من القصص المؤثرة التي لم تفارق مخيلة ريبال، قصة السجين الذي أودت بحياته عطسة.

"كنا نياماً حين استفقنا على صوت أحد الحراس، وهو يطلب من رئيس المهجع تعليم خالد الحموي "أبو البيجاما الزرقاء" لينال عقابه في صباح اليوم التالي.
لم يكن ذنب خالد سوى أنه عطس بصوت مرتفع، حيث كان يشكو من نزلة برد حادة، ليس بسبب برودة الأجواء في ليلة شتاء تدمري، بل لأنه نال الحصة الأكبر من دلو ماء بارد سُكب علينا من الشرّاقة قبل ثلاثة أيام".

حلّ الصباح وكان بانتظار خالد حفلة تعذيب مفتوحة، كما وعد الحارس. وتختلف هذه الحفلة عن حفلات التعذيب الاعتيادية، حيث يستخدم فيها كل أنواع وأدوات التعذيب، وتهدف إلى الإجهاز على الضحية، ويلجأ إليها في حال إنزال عقوبات مغلظة بحق سجناء يخالفون القوانين العسكرية داخل السجن. وعادة لا ينجو منها أحد.

”في ذلك اليوم كنت الأقرب إلى باب المهجع، فكانت نوبتي في التلصص على ما يدور في الخارج، من خرم صغير أحدثه الصدأ، كرصد حركة الحراس، ومدى اقترابهم أو ابتعادهم عن مهجعنا، ومتابعة حفلات التعذيب في الباحة الأولى“.

تجمهر حوالي ستة عناصر من أفراد الشرطة العسكرية حول خالد، وبدأوا بتوجيه اللكمات والرفسات على كافة أنحاء جسده، قبل أن يصيح به أحدهم:

ـ أنت الي صرعتنا مبارح يا أخو ...

بدي أعلمك كيف تعطس من ط ...

أحضر أحدهم زجاجة ”سفن أب“ مقفلة، وطلب منه أن يعضّ بأسنانه على غطاء الزجاجة المعدني، وما أن فعل ذلك حتى ضرب بقبضته على الغطاء بقوة، ما أدى إلى فتح الزجاجة وتطاير أسنان خالد في الهواء.

بعد فاصل طويل من الجلد بالكرابيج والهروات على رأسه وصدره وظهره، أجبر على الجلوس فوق الزجاجة، ومن ثم بدأوا بضغطه إلى أسفل حتى دخل أكثر من نصفها في مؤخرته.

استمرت حفلة التعذيب حوالي ساعة ونصف، وترك بعدها مدرجاً بدمائه لأكثر من عشرين دقيقة، قبل أن يُطلب منا سحبه إلى داخل المهجع.

كان جسد خالد أشبه بذبيحة فصل لحمها عن عظمها، لم يبق أي من أضلاعه على حاله، جمجمة مهشمة، وفك سفلي متدلي على الرقبة، ودماء تنزف من كل مكان، لم يلبث بيننا لحظات قبل أن تصعد روحه إلى بارئها. غير أن جثته بقيت ليلة كاملة قبل أن يسمح بنقلها في صباح اليوم التالي، إلى غرفة في ركن الباحة السادسة مخصصة لتجميع الجثث.

احدى باحات التعذيب في سجن تدمر

انتصار حزيران

رغم آلة القمع وعلميات التعذيب الممنهج التي اتبعتها إدارة سجن تدمر على مدار خمسة عقود، بهدف إذلال السجناء وبث الخوف في نفوسهم، فإن ذلك لم يثن بعضهم عن رفع راية التحدي بوجه السجّان، وإظهار قوة وصلابة غير معهودة في أقبية الموت الرعب.

يذكر ريبال، قصة أبطال المهجع الثالث الذين قرروا ذات صيف، عدم الامتثال للضوابط واللوائح المعمول بها داخل السجن، على اعتبار أن العذاب اليومي مستمر في كلا الحالتين.

فكان أن خرجوا في ساعة التنفس، مرفوعي الرؤوس وبأعين مفتوحة تماماً، وهو ما يعتبر مخالفة للقواعد العسكرية التي تحظر على السجناء رفع رؤوسهم وفتح أعينهم.

فثار أفراد الشرطة العسكرية في الباحة الأولى، وبدأوا بضربهم بصورة غير مسبوقة، إلا أن أحداً منهم لم ينبس ببنت شفة، فقد أرادوا الإيغال في استفزاز جلاديهم، فامتنعوا عن الصراخ المعتاد في مثل هذه الحالة، بل وأكثر من ذلك، كانوا يردون الشتائم مضاعفة.

كان ذلك اليوم في الشهر السادس من عام 1999 أشبه بالانقلاب، وقد توافق السجناء فيما بعد على تسميه تلك الحادثة بانتصار حزيران.

أما عن مصير السجناء، فيقول ريبال، إن إدارة السجن ضاعفت لهم العذاب على مدار شهر كامل، كما حرموا من الطعام والنوم لمدة ثلاثة أيام، قبل أن تنفذ بحق مجموعات منهم أحكام بالإعدام.

وقد حرصت إدارة السجن على تنفيذ تلك الأحكام أمام مرأى الجميع، لإيصال رسالة إلى بقية السجناء في المهاجع الأخرى، بأن مصير أي محاولة للتمرد هو الموت، دون أن تعلم أن ذلك كان مطلب الآلاف منهم، باعتبار أن الموت هو الخلاص الوحيد لهم في سجن تدمر.

ركام من لحم ودم

"السجين الذي لايموت في العام الأول قهرا، لايمكن أن يموت بعد ذلك مهما طالت مدة اعتقاله، إلا في الحالات المتعارف عليها، كالموت في حفلات التعذيب أو تحت المقصلة، عدا ذلك يصبح السجين جزءاً من أثاث ومستلزمات السجن، كالجدران والنوافذ والأبـواب، أو حتى ذلك الفأر الذي يعبث في الدهاليز، مع فارق حرية الحركة والتنقل بين الاثنين".

وصل ريبال إلى تلك القناعة بعد مرور عشرة أعوام على اعتقاله، فقد فيها الرغبة في كل شيء، فقد الأمل بالحياة والنجاة، حتى أنه لم يعد يرى أهله وخطيبته في منامه.

كان كل ما يحيط به يشير إلى أنه باق على قيد الموت إلى الأبد، دون أن يستدعي ذلك قبراً كالذي قرأ عنه في صباه، ولا قيامة تعجل حسابه.

فكان قبره الصحرواي بمقاس سجن لم يسأل فيه عن ربه ودينه ونبيه، ولم يخلد للنوم بانتظار نفخة البعث، فظل ميتاً معلقاً في العدم، مجرداً من كل شيء باستثناء حاسة الألم.

مرت السنوات وبقي ريبال، رقما في سجلات تدمر، وركاما من لحم ودم، لا بارقة أمل تخرجه من حالة الموت السريري، ولا أخبار تأتي من خارج الأسوار فتخفف عنه وطأة الظلمة الدائمة في قبره المؤقت.

على هذا الحال قضى زهرة شبابه يعتّق الأمل، وحيدا، وصامتا، وعاريا في جوف ذاك الوطن الذي أتاه يوما خادما لعلمه فكافأه بقبر!

مكتب أحد الضباط في سجن تدمر

عفو رئاسي

ذات مساء كان ريال، مشغولا باستصلاح نتف من صفار البيض المسلوق حين فتح أحد أفراد الشرطة العسكرية باب المهجع مناديا عليه.. كانت المرة الأولى التي يسمع فيها اسمه منذ 12 عاما.

"للوهلة الأولى، ظننت أنه اسم لصديق مر في الذاكرة، فهو اسم مألوف لدي، وفجأة انتفضت واقفا: حاضر سيدي.. إنه اسمي، فطلب مني أن ألملم أغراضي وأهيئ نفسي للمغادرة، وأضاف بصوت غائب "إخلاء سبيل".

جملة واحدة كانت كفيلة بإيقاد شعلة الروح في جثته الهامدة.. لم ينتظره الحارس طويلا، فهو الأسير المعدم الذي لم تكن عهدته سوى ركام أضلاعه المكسرة.

تم تجميع السجناء المفرج عنهم باحة السجن، وكانوا ثلاثين سجيناً، سمعوا اسماءهم لأول مرة بعد انقطاع دام سنوات، كما كانت المرة الأولى التي سمح لهم فيها بفتح أعينهم ورفع رؤوسهم.

انتهز ريال الفرصة لاستراق نظرات خاطفة تساعده في التعرف على ملامح المكان الذي كان شاهداً على موت عشرات الآلاف من السجناء.

بدت جدران السجن كأكفان متسخة بالشعارات والرسومات التي تمجد الرئيس والوطن والمواطن:مشانق معلقة، وعصي مكسّرة، وكرابيج ملقاة على الأرض بعد أن بليت من كثرة الاستخدام.

بعد خطبة تلاها مدير السجن، علم ريبال أن عفوا رئاسيا أصدره الرئيس الجديد لسوريا بشار الأسد، شمله هو ومن معه، وكان ذلك في منتصف نوفمبر/تشرين الثاني 2000.

وكان من جملة ما جاء في الخطبة ..

إن قرار الرئيس المفدى صدر في إطار التسامح الاجتماعي واللحمة الوطنية ومتطلبات العيش المشترك.

إن المرسوم الرئاسي لم يستثنِ من أحكامه إلا عددا محدودا من الجرائم، والجنح المنصوص عليها في قانون العقوبات العسكرية الصادر بالمرسوم التشريعي رقم واحد وستين لعام 1950.

في تلك الأثناء تساءل ريبال، وهو الذي كان مطلعاً على القانون بحكم رغبة سابقة في الالتحاق بكلية المحاماة، كيف لسجين مثله متهم بالتجسس والعمالة، أن يشمله عفو رئاسي؟ ولماذا لم ينفذ بحقه حكم الإعدام طيلة السنوات الماضية، كما هو معتاد في مثل هذه الأحكام.

وسرعان ما قرأ الإجابة في السطور الأولى من ملفه الذي حمل إشارة إلى أنه مصنف ضمن السجناء العسكريين الذين ارتكبوا جرائم، دون الإشارة إلى نوع الجريمة، ما يعني خلو الملف من تهمة التجسس والعمالة لصالح دولة الاحتلال الإسرائيلي. وهو ما أصابه بصدمة كبيرة، لأنه ظن خلال عقد كامل أنه يقضي حكماً بالسجن المؤبد لقاء هذه التهمة.

في صباح اليوم التالي، استقلّ السجناء المفرج عنهم أحد باصات الترحيل العسكرية.

لم يشفع لهم قرار العفو من لكمات ولطشات أفراد الحراسة، فضلاً عن الشتائم التي كانت تنهال عليهم طيلة الرحلة.

في الطريق، علموا أنهم متوجهون إلى فرع فلسطين لاستكمال إجراءات إطلاق سراحهم. لم يكن يشغلهم العنوان أو المحطة الأخيرة للباص، ماداموا على يقين بأنهم لن يعودوا مجدداً إلى سجن تدمر.

لم تكن بوابة الفرع مفروشة بالورود والزغاريد كما توقع أحدهم، حيث تم استلامهم كالخراف، قبل أن يعاد التحقيق معهم وكأنهم سجناء جدد.

في ذلك اليوم أطلق سراح عشرة سجناء فقط، وبات عشرون آخرون، من بينهم ريبال، ليلتهم الأخيرة في السجن، قبل أن يفرج عنهم جميعاً في صباح اليوم التالي.

صورة لقائمة من السجناء الذين قضوا في المعتقلات السورية

نسيم الحرية

أمام فرع فلسطين كانت خطوته الأولى نحو الحرية ..

"ها أنا أسير بلا قيد، بلا عصبة على العينين، لا أحد ينهرني، لا أحد يشتمني .خطوة أخرى ولا وجود للكمات أو رفسات. خطوة ثالثة، لم تنهل عليّ سياطهم.. قشعريرة تسري في جسدي النحيل، إنه احتفاء اللحم بالحرية".

على الرغم من توقه الشديد للشمس والهواء والضجيج فإن ذلك لم يثنِ ريبال، عن القفز في أول سيارة تصادفه على الطريق.. يسأله السائق عن وجهته، فيعطيه عنوان أهله الذين لا يعلم عنهم شيئا منذ الوداع الأخير قبل 12 عاما حين ذهب لخدمة العلم.

"تدخل السيارة في الحارة، تستدير يمينا، تواصل السير، تقطع خمسين مترا، نعم هذا بيتنا، الثالث من اليمين، هذه أشجار حديقتنا، يقف السائق، أمشي ببطء، أرى أطفالا صغارا يلعبون في باحة البيت، تُرى من هؤلاء الصبية؟ من تزوج من أخوتي؟ سلمى! هل ما زال والداي على قيد الحياة؟

أطرق الباب، لا أسمع صوتا، أدخل، لا أرى أحدا، يأتي صوت من الخلف، يسألني: من أنت؟ إنه صوت أمي، نعم.. صوت أمي، أعرفه جيدا، ألتفت إليها، تصرخ، تسقط، أنحني عليها، أقبل قدميها.. يعلو الصراخ في البيت، يهرول أخي الأصغر

ينكب فوقي، تتحسس أمي وجهي، تعبث بشعري، تنادي اسمي، تصرخ، أصرخ، يبكي الجميع.. وما هي إلا لحظات حتى ضعت تحت غابة من الأيدي والأحضان الدافئة".

بهذه الكلمات تذكر ريبال، اللحظات الأولى التي قابل فيها عائلته بعد غياب طويل شهد موت والده قهرا وحسرة عليه، وارتباط سلمى بشاب آخر، وزواج جميع أشقائه وشقيقاته، وانتقال بعضهم للعيش في لبنان.

اثنا عشر عاما اكتشف فيها ريبال، أن الوطن لم يكن سوى بضعة أمتار من الظلم والظلمة، وأن النشيد الوطني ليس سوى تلك الجملة التي يرددها "حماة الوطن" مرارا على أبنائه المعتقلين "أنتم في تدمر، هنا في هذا السجن، لا وجود لله، نحن الله، نحن نحييكم ونحن نميتكم."

انتهى.

ريبال في معسكر اللجوء بالسويد

ريبال يتحدث للكاتب عن تجربته في السجن - السويد 2015

فهرس

مقدمة --7
إهداء --9
الدرس الأول --11
معسكر الطلائع ---13
تفويض الدم --17
سلمى ---19
خطوبة وكابوس ---23
فترة التجنيد ---25
ثمن رصاصة ---27
حادثة المدرعة ---29
محاكمة عسكرية ---31
سجن تدمر --33
لوائح وضوابط ---35
الشراب الأصفر --37
استمناء قسري ---41
أين الله؟ --43
نبأ الاعتقال ---45
عطسة --49
انتصار حزيران --51
ركام من لحم ودم --53
عفو رئاسي ---55
نسيم الحرية ---59

الكاتب في سطور

علي أبو مريحيل

كاتب وصحفي فلسطيني، ولد في27 أكتوبر/تشرين أول 1981 في مخيم البداوي للاجئين الفلسطينيين بمدينة طرابلس (شمال لبنان)، من أسرة تعود أصولها إلى مدينة بئر السبع التي هُجر معظم سكانها في النكبة عام 1948.

تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي في مخيم البداوي بمدارس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا). بعد اتفاقية أوسلو وقيام السلطة الفلسطينية عاد مع والده الذي كان مناضلاً في حركة التحرير الفلسطينية، إلى قطاع غزة، وهناك أكمل دراسته الثانوية، ومن ثم تخرج في جامعة الأزهر بغزة وحصل على شهادة البكالوريس في إدارة الأعمال.

أثناء دراسته الجامعية أصدر مجموعات شعرية صغيرة، غلب عليها الطابع الرومانسي، ولاقت قصائده آنذاك انتقادات في الوسط الأدبي الفلسطيني بسبب تناقضها مع الواقع المرير الذي يعيشه سكان قطاع غزة.

في عام 2010 هاجر إلى جمهورية الصين الشعبية، وبدأ ينشط في مجال الصحافة وكتابة مقالات الرأي.

في عام 2013 أسس مجلة "صوت العرب"، وكانت أول مطبوعة عربية سياسية تنشر في الصين.

في عام 2015 هاجر إلى السويد، وقام بإعداد تقارير وتغطيات خاصة عن اللاجئين، لشبكة الجزيرة، تناولت قصص سجناء سوريين لم يكن بمقدورهم التحدث إلى وسائل الإعلام إلا بعد خروجهم من سوريا ووصولهم إلى بر آمن في القارة الأوروبية.

في عام 2016 عاد إلى الصين، والتحق بقناة الجزيرة، حيث يعمل في مكتبها بالعاصمة بكين.

اقتباسات من الكتاب

”السجين الذي لايموت في عامه الأول قهرا، لايمكن أن يموت بعد ذلك مهما طالت مدة اعتقاله، إلا في الحالات المتعارف عليها، كالموت في حفلات التعذيب أو تحت المقصلة، عدا ذلك يصبح السجين جزءاً من أثاث ومستلزمات السجن، كالجدران والنوافذ والأبواب، أو حتى ذلك الفأر الذي يعبث في الدهاليز، مع فارق حرية الحركة والتنقل بين الاثنين“

”من الذي يعطي الحق لأي كان، أن يعاقب الآخرين بهذه الطريقة؟ وأي قانون هذا الذي يتيح لمثل هؤلاء الأوغاد، أن يجبروا سجينا على شرب بولهم ولعق قاذوراتهم“

”أين الله عنا الآن، لماذا لا يتدخل ليفك كربتنا؟ وكيف يدع هؤلاء الذين يشتمونه كل يوم ويبولون على كتابه، يتحكمون بمصائرنا، ويعبثون في أرواحنا“

”بدت جدران السجن كأكفان متسخة بالشعارات والرسومات التي تمجد الرئيس والوطن والمواطن:مشانق معلقة، وعصي مكسّرة، وكرابيج ملقاة على الأرض بعد أن بليت من كثرة الاستخدام“

”جملة واحدة كانت كفيلة بإيقاد شعلة الروح في جثته الهامدة.. لم ينتظره الحارس طويلا، فهو الأسير المعدم الذي لم تكن عهدته سوى ركام أضلاعه المكسرة“